

جامعة المنصورة - كلية الآداب
المركز الحضاري لعلوم الإنسان
والتراث الشعبي



المدينة الفاضلة بين الثقافة الشعبية والرسمية
دراسة في
"سيره الظاهر بيبرس"
بين الإبداع الشعبي والمسرحي في مصر

الدكتور / كمال الدين حسين

أستاذ مساعد المسرح والدراما الشعبية

كلية رياض الأطفال - جامعة القاهرة

استهلال

لو كانت التنمية تعني تحسين الحياة المعيشية للإنسان عن طريق تنميته الموارد وزيادة الإنتاج .

فلا بد وأن يتحقق ذلك في مجتمع تسوده الديمقراطية و يظله العدل والحرية والمساواة .

مثل هذه المجتمعات كانت حلما دائما للشعوب حلمت بها ... وصورها فلاستها... حلما بمدينة فاضلة ممكن تحقيقها... لكن ؟

ومع لكن هذه ، تأرجح الحلم بالمدينة الفاضلة ... الحلم بالتنمية بتحسين معيشة الإنسان ... ما بين عوامل بناء وعوامل هدم ... وحول الحلم بالتنمية ... تحسين معيشة الإنسان ... الحلم بالمدينة الفاضلة .. ذلك الحلم الممكن المستحيل .

"تعد السيرة الشعبية صنفا متميزا من المأثور، يحوى تصورات الجماعة الشعبية العربية لأحداثها المتواترة ، ومعتقداتها وحكاياتها عن مآثر أبطالها القدامى .. ففيها وعبرها تتكوب العلاقة بين ماضي الجماعة وحاضرها ، الفردي والجمعي ، الذاتي والقومي ، الواقعي والخيالي ، التاريخي والمتخيل والممكن والمأمول" (١٠-١٠) .

مقدمه :

من الثابت تاريخياً أن معظم الإبداعات الشفاهية الشعبية ، قد تم تدوينها ما بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي ، في نهاية حكم المماليك وهي الفترة التي دونت فيها معظم - وإن لم يكن كل - السير الشعبية ومنها سيره الظاهر بيبرس ، والتي عبر من خلالها المبدع الشعبي عن حلم الشعب المصري بما يجب أن تكون عليه حال الشعب والبلد أكثر من تعبيره عما هو كائن ، فجاءت السيرة كغيرها من فنون الأدب الشعبي " لا تهتم برصد الأحداث والوقائع التاريخية ، وإنما ترصد لنا رأي الناس في هذه الأحداث والشخصيات أيضاً... ، فالفنان الشعبي حين يختار التاريخ مجالاً لعمله ، لا يهتم سوى بالاستجابات العقلية والعاطفية لجمهوره من الناس ، ولذا فإنه يضيف من خيالاته تفصيلات ووقائع ، ويعدل من الشخصيات والأحداث التاريخية ليلبي حاجه اجتماعيه ثقافية ، ونفسيه للعامة أصحاب المصلحة في الرواية " (٥-١٤) .

هكذا جاءت سيره الظاهر بيبرس ، وإن كانت أحداثها تدور في نهاية الدولة الأيوبية وبداية دولة المماليك البحرية ، إلا أنها طرحت وجهة نظر الشعب في حكم المماليك برمته .

تاريخياً وأثناء فتره حكم المماليك لمصر والتي استمرت حوالي ثلاثة قرون (١٢٥٢م - ١٥١٧م) عاش الشعب المصري حاله من القلق الاقتصادي في عصر المماليك "بسبب تلاعب السلاطين بالعملة ، أو حدوث الفتن والمنازعات بين طوائف المماليك - من ناحية أخرى - من المعروف أن المماليك أنفسهم عاشوا طبقه أرستقراطية يحكمون البلاد ويتمتعون بالجزء الأكبر من خبراتها دون أن يحاولوا الامتزاج بأهلها ... أما المصريون فقد استطاعت بعض فئاتهم مثل المعممين والتجار أن يحتفظوا لأنفسهم بمكانه مرموقة في المجتمع في حين ظل أهل البلاد من العوام والفلاحين يحيون حياة أقرب إلي البؤس والحرمان " (٢ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩) .

في هذا المناخ من التناقض الطبقي ما بين طبقه المماليك الحاكمة المتصارعة دوماً على الحكم حيث كان العنف والدم " هو الطريق إلى العرش منذ بداية عصر المماليك فقد اعتقد المماليك منذ البداية أن عرش البلاد حق لهم جميعاً، يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين ... وتقرر منذ البداية "أن الحكم لمن غلب" (٨-١٣٣) ، وبين الشعب المصري الذي يعيش دوماً حياه اقرب إلى البؤس والحرمان ، لا رأي له أو اعتبار لرغبته في اختيار الحاكم فالحاكم هو من يملك القوة ، وإدعاء الشرعية حيث تحددت أبعاد السياسة المملوكية بمسارين أساسيين " أحدهما عسكري يعتمد على قوة الجيش المملوكي لفرض الأمر الواقع ، وثانيهما ديني يستند على قوة رئيسيه عناصرها الخلافة العباسية في القاهرة ، وأهل العمامة والمنشآت الدينية " (٨-١٥٥) .

في هذا المناخ لم يجد الشعب المسالم أمامه إلا أن يقف موقف المتفرج أحيانا أو الحالم بالتغير أحيانا كثيرة ، وقد صاغ هذا الحلم في عدد من الإبداعات الشعبية ، التي جاءت لتعبر عن حلمه بالأمن والعدل والحرية ، حتى ولو كان على يد واحد من المماليك ، مثلما فعل مع سيره الظاهر بيبرس حيث اختار واحد من اعظم هؤلاء المماليك من وجه النظر الشعبية والتاريخية ، وهو السلطان الملك الظاهر (ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي (١٢٦٠-١٢٧٧م) والذي يعتبر " من أعظم سلاطين المماليك إذ اجتمعت فيه صفات العدل والفروسية والإقدام ، كما أقام النظم والقواعد التي أدت إلي تقويته اسم دوله المماليك " (١١-٩٥) .

استدعى المبدع الراوي الشعبي للسيرة الشعبية ، مؤسس دوله المماليك ليحمله مسئوليه تحقيق حلمه في السيرة التي حملت اسمه وجعلته "رمزاً حلمه المصريون كل رموزهم الاجتماعية ، وصبغوه بالقيم والمثل ، والأخلاقيات التي تمثلهم " (٧-١٢٢) ، أو كما يقول عبد الحميد يونس " إن السيرة صورته - بيبرس - في صورته البطل كما ينبغي أن يكون في أذهان العامة وقتذاك ... ومن

ثم فقد جعلت بيبرس "المخلص" ينتظره الناس بفارغ الصبر ، ليرفع عن كاهلهم الظلم ، ويرد عنهم غاشية العدو ويوزع الأمر بينهم بالقسط " (٤-٢٤) .

خاصة وأن لببيرس في التاريخ رصيد من الأعمال التي حبيبت الشعب فيه فقد اتفق أن غلت الأسعار بمصر مده في أيام الملك الظاهر ... فنأدى السلطان الفقراء أن يجتمعوا تحت القلعة .. ونظر في أمر السعر ، وابطل التسعيرة ، وكتب مرسوما ، إلى الأمراء ببيع خمسمائة إردب كل يوم ، وأن يكون البيع للضعفاء والأرامل فقط دون من عداهم ... وأمر الحاسب ليكتبوا أسماء الفقراء ، ولما انتهى إحصاء الفقراء اخذ منهم لنفسه الوفاء ، وجعل باسم ابنه الملك السعيد الوفا ، وأمر ديوان الجيش فوزع بما فيهم على كل أمير جملة من الفقراء بعده رجاله (٥-٩) .

تجاوزت المسؤوليات والمهام التي حملها الراوي الشعبي لببيرس محاولاته لرد العدوان الصليبي والتتري على العالم العربي ، وتوحيد الأمة وانتصاره فيها جميعاً ، وهي الأعمال التي سجلها التاريخ الرسمي له ، إلى مسئولية الإصلاح الداخلي وتحقيق الأمن والعدل والمساواة بين الشعب والمماليك وهما المسئوليتان اللتان تدور حولهما السيرة التي يمكن تقسيمها إلى قسمين ، قسم أسند فيه الراوي مهمة الإصلاح الداخلي للوطن إلى بيبرس وهو يستغرق حوالي ثلث السيرة ، وهو القسم الذي يمكن اعتباره تصوراً "يوتوبيا" لمدينه فاضلة خاليه من الفساد والشرور ، يسودها العدل ويشعر فيها المواطن بالأمن والكرامة ، وحمل بيبرس مسئولية إقامتها حتى على مستوى الحلم ، قبل توليه الملك ، كما حملة مهمة تحقيق حلم آخر لا يقل أهميه عن المدينة الفاضلة بل يستتبعها وهو الحلم بتوحيد أمه الإسلام والانتصار على أعدائها الخارجين ، ولما كان الحلم الأول الذي يهمننا هنا ، ويهم الشعب بالدرجة الأولى لارتباطه المباشر بحياته داخل الوطن وهو الحلم بالإصلاح الداخلي والذي حلم به الراوي واسند إلي بيبرس تحقيقه لذلك : نجد أن راوي السيرة ، قد احتفى بيبيرس في هذا

في هذا المناخ من التناقض الطبقي ما بين طبقه المماليك الحاكمة المتصارعة دوماً على الحكم حيث كان العنف والدم " هو الطريق إلى العرش منذ بداية عصر المماليك فقد اعتقد المماليك منذ البداية أن عرش البلاد حق لهم جميعاً، يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين ... وتقرر منذ البداية "أن الحكم لمن غلب" (٨-١٣٣) ، وبين الشعب المصري الذي يعيش دوماً حياه اقرب إلى البؤس والحرمان ، لا رأي له أو اعتبار لرغبته في اختيار الحاكم فالحاكم هو من يملك القوة ، وإدعاء الشرعية حيث تحددت أبعاد السياسة المملوكية بمسارين أساسيين " أحدهما عسكري يعتمد على قوة الجيش المملوكي لفرض الأمر الواقع ، وثانيهما ديني يستند على قوة رئيسيه عناصرها الخلافة العباسية في القاهرة ، وأهل العمامة والمنشآت الدينية " (٨-١٥٥) .

في هذا المناخ لم يجد الشعب المسالم أمامه إلا أن يقف موقف المتفرج أحيانا أو الحالم بالتغير أحيانا كثيرة ، وقد صاغ هذا الحلم في عدد من الإبداعات الشعبية ، التي جاءت لتعبر عن حلمه بالأمن والعدل والحرية ، حتى ولو كان على يد واحد من المماليك ، مثلما فعل مع سيره الظاهر بيبرس حيث اختار واحد من اعظم هؤلاء المماليك من وجه النظر الشعبية والتاريخية ، وهو السلطان الملك الظاهر (ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي (١٢٦٠-١٢٧٧م) والذي يعتبر " من أعظم سلاطين المماليك إذ اجتمعت فيه صفات العدل والفروسية والإقدام ، كما أقام النظم والقواعد التي أدت إلى تقويته اسم دوله المماليك " (١١-٩٥) .

استدعى المبدع الراوي الشعبي للسيرة الشعبية ، مؤسس دوله المماليك ليحمله مسئوليه تحقيق حلمه في السيرة التي حملت اسمه وجعلته "رمزاً حملته المصريون كل رموزهم الاجتماعية ، وصبغوه بالقيم والمثل ، والأخلاقيات التي تمثلهم " (٧-١٢٢) ، أو كما يقول عبد الحميد يونس " إن السيرة صورته- بيبرس - في صورته البطل كما ينبغي أن يكون في أذهان العامة وقتذاك ... ومن

ثم فقد جعلت بيبرس "المخلص" ينتظره الناس بفارغ الصبر ، ليرفع عن كاهلهم الظلم ، ويرد عنهم غاشية العدو ويوزع الأمر بينهم بالقسط " (٤-٢٤) .

خاصة وأن لببيرس في التاريخ رصيد من الأعمال التي حبيبت الشعب فيه فقد اتفق أن غلت الأسعار بمصر مده في أيام الملك الظاهر ... فنأدى السلطان الفقراء أن يجتمعوا تحت القلعة .. ونظر في أمر السعر ، وباطل التسعيرة ، وكتب مرسوما ، إلى الأمراء ببيع خمسمائة إردب كل يوم ، وأن يكون البيع للضعفاء والأرامل فقط دون من عداهم ... وأمر الحاسب ليكتبوا أسماء الفقراء ، ولما انتهى إحصاء الفقراء اخذ منهم لنفسه الوفاء ، وجعل باسم ابنه الملك السعيد الوفا ، وأمر ديوان الجيش فوزع بما فيهم على كل أمير جملة من الفقراء بعده رجاله (٥-٩) .

تجاوزت المسؤوليات والمهام التي حملها الراوي الشعبي لببيرس محاولاته لرد العدوان الصليبي والتتري على العالم العربي ، وتوحيد الأمة وانتصاره فيها جميعاً ، وهي الأعمال التي سجلها التاريخ الرسمي له ، إلى مسئوليته الإصلاح الداخلي وتحقيق الأمن والعدل والمساواة بين الشعب والمماليك وهما المسئوليتان اللتان تدور حولهما السيرة التي يمكن تقسيمها إلى قسمين ، قسم أسند فيه الراوي مهمة الإصلاح الداخلي للوطن إلى بيبرس وهو يستغرق حوالي ثلث السيرة ، وهو القسم الذي يمكن اعتباره تصوراً "يوتوبياً" لمدينه فاضلة خالية من الفساد والشرور ، يسودها العدل ويشعر فيها المواطن بالأمن والكرامة ، وحمل بيبرس مسئوليته إقامتها حتى على مستوى الحلم ، قبل توليه الملك ، كما حملة مهمة تحقيق حلم آخر لا يقل أهميه عن المدينة الفاضلة بل يستتبعها وهو الحلم بتوحيد أمه الإسلام والانتصار على أعدائها الخارجين ، ولما كان الحلم الأول الذي يهمننا هنا ، ويهم الشعب بالدرجة الأولى لارتباطه المباشر بحياته داخل الوطن وهو الحلم بالإصلاح الداخلي والذي حلم به الراوي واسند إلي بيبرس تحقيقه لذلك : نجد أن راوي السيرة ، قد احتفى ببيبرس في هذا

الجزء المرتبط بتحقيق الإصلاح الداخلي أكثر مما احتقت به السيرة وهو سلطان للامه "يسعى لتوحيد أمه إسلامية وتفسير ذلك .. أن نزوع العامة إلى تفسير الواقع يجد نفسه في هذه المرحلة -لا في الثانية - ، عندما كان البطل وهو في سبيل الحكم يحارب الحكومة القائمة ، فلما أصبح هو الحكومة لم يعد لذلك القتال سبيل" (٢٦-٤) .

إن كان المبدع الشعبي قد استعار عند روايته للسيرة من تاريخه القريب لزمن الرواية شخصيه تاريخية ذات شهره مؤسسه على أفعال وإنجازات وثقها المؤرخ الرسمي من جهة وترسبت في وجدان الشعب ومبدعيه من جهة أخرى . نجد مبدعاً معاصراً ، يلجأ إلى نفس السيرة .. عندما أراد أن يفسر حلم معاصريه _ في نهاية هذا القرن (١٩٨٧) بمدينة فاضلة يتحقق فيها العدل - المساواة والحرية ، وإن كان قد ناقض الراوي المبدع الشعبي في تفسيره لشخصيه بيبرس ، ومدى ملائمته لدور المخلص ، المهم هنا أن المبدع المعاصر في مسرحيته لم يلجأ إلى التاريخ الرسمي والذي قد يكون أكثر ثراء في مادته المتاحة اليوم عما كان لدى الراوي الشعبي آنذاك ، بل حاول القيام بدور الراوي الشعبي فلجأ إلى السيرة ليعيد تفسير العلاقة بين شخصيه الظاهر بيبرس كحاكم والشعب متمثلاً في عثمان بن الحلبي ، ويطرح رؤيته حول هذه العلاقة ومدى نجاحها كما تصورها بمنظور العلاقات السائدة في عالمه المكاني والزمني . ومع اختلاف المبدع المسرحي مع الراوي الشعبي حول شخصيه بيبرس ، وعثمان وأهداف ووسائل كل منهما إلا انهما اتفقا على تجسيد حلم الشعب الدائم "بالمدينة الفاضلة " والتي جاء ضمن أحداث كل من السيرة والمسرحية كحلم حاول بيبرس إقامته وتحقيقه بمعاونه عثمان وكان رمزه " القيصريّة " التي بناها بيبرس في السيرة بتكليف من السلطان الصالح نجم الدين وباقتراح من عثمان بن الحلبي لتكون نموذجاً لمدينه أو حي يوفر لسكانه الأمان والأمن والحرية ،

وقد اعتبرها "عبد العزيز حموده" مبدعنا المعاصر في مسرحيته "الظاهر بيبرس" الحلم الذي كما يقول بيبرس عنه " عشت طول عمري علشانه " .

فكيف جاء تصور هذه المدينة في السيرة الشعبية وفي المسرحية ، وكيف كانت رؤية كل من المبدع الشعبي والرسمي حول هذه المدينة وعوامل إحيائها وهدمها .

القبصرية ... مدينه فاضله !!

في عبارات قصيرة يمكن القول بان المدينة الفاضلة أو المجتمع الفاضل ما هو إلا ذاك المجتمع الذي يقدم كل ما يلزم لتحقيق الرفاهية وخلق حاله من الرخاء لإفراده ، وتوفير احتياجاتهم من غذاء ملبس ومسكن ، وتعليم ، ورعاية طبيه" (١٢-١٣) وقد صور العديد من المفكرين والأدباء عبر العصور هذه المدينة أو ذاك المجتمع في عدد من الإبداعات والتصورات الفكرية ، الأمر الذي دعي البعض إلى النظر إليها بل اعتبارها "غرائب أدبيه أضفت عليها الاحترام أسماء مشهورة ، أكثر مما ينظر إليها بوصفها إسهامات جادة في المشكلات السياسية التي أفلقت العصر الذي ظهرت فيه ، لذلك لم تتعدى كونها " نموذجاً لمجتمع خيالي مثالي يتحقق فيه الكمال أو يقترب منه ، ويتحرر من الشرور التي تعاني منها البشرية ، ولا يوجد مجتمع كهذا ... إلا في ذهن الكاتب نفسه وخياله قبل كل شيء " (٨-٩) .

لكن مهما كان الرأي في هذه اليوتوبيات ابتداء من جمهورية أفلاطون وانتهاء بروايات الخيال العلمي ، إلا أن الشيء الثابت " أنها جاءت كاستجابات مختلفة للمجتمعات التي نشأت فيها ، فكانت تعبيراً عن الرغبة في تغيير الواقع القائم وتجاوزه والحلم بحياة أفضل وأكثر عدلاً . (٨ - ١٠) .

من هذا المنطلق يمكن اعتبار سيره الظاهر بيبرس واحداً من تلك التصورات التي صاغت الحلم الشعبي بحياة ومجتمع أفضل وأكثر عدلاً ، والذي

توج بالحلم ببناء "القيصرية" والذي رصدته السيرة كواقع في بنائها ، وأشارت إليها المسرحية ، كحلم لبيرس يتوج به أفعاله :

بيرس : إحنا اتفقنا نصلح سوا ونبني سواه .

عثمان : والحمد لله .. كل ده حصل يا مولانا السلطان .. استتب الأمن وعم جهات مصر المحروسة .. إتمنعت الخمر والبغاء .. إتقّلت الحانات ودور اللهو والمنكر وانتشر لواء حكمتك في كل مكان والقيصرية قربت تخلص .
بيرس : القيصريّة ؟ .

عثمان : الحي الجديد اللي اتفقنا على إنشائه يا مولانا السلطان قررنا نسميه قيصريّة مملوك حارة .. الشوارع الواسعة إتبلطت ، المباني النظيفة قربت تخلص .. الخضرة في كل مكان .. مكان الدرك .. البوابات الجديدة اللي تفصل شارع عن شارع ، وحارة عن حارة .. مية النيل النظيفة وصلت للحي مجاري الصرف جاهزة .. وكلها أيام ولا أسابيع ونختار الصنایعيه وأرباب الحرف من الشبان علشان يعمروا الحي الجديد ، علشان يبدأوا المجتمع الجديد اللي بتعلم بيه مجتمع الحرية والمساواة والإنتاج .. مجتمع ما يعرف الخوف ولا الجريمة .
(عبد العزيز ١٥-٦٣) .

هنا يحدد المؤلف الملامح العمرانية للمدينة الفاضلة من وجهه نظر معاصره ، مدینه ترتبط بالنظافة ، والأمن والعمل .. ترتبط بالمساواة والعدل وسكانها من أهل الحرف والشباب .. أما عمارتها فهي قريبه الشبه بمدینه "أموروت" مدینه توماس مور الفاضلة ، حيث الطرق مهيأة جداً للمرور أما المباني فأبعد ما تكون عن الضالة والتواضع ، ومقامه بعضها بجانب بعض في صف طويل ، وبين واجهات المنازل المتقابلة " شارع عرضه عشرون قدماً والمنازل حولها خدائق .. الخ " (٨-١١٤ ، ١١٥) . هذه هي الملامح العمرانية للمدينة الفاضلة كما جاءت في المسرحية فكيف كانت صورتها في السيرة الشعبية .

جاءت القيصريّة أو الحارة أو المدينة الفاضل إن جاز التعبير كحلم لعثمان بن الحلبي ، يجسد حلم الشعب بحياة أفضل فقد طلب عثمان من السلطان الصالح أن يأمر بإقامتها حول بيت ببيرس في حي السيدة زينب حيث " البيت وحدة من غير ونيس ما ينفعش ، وإنما تقول للأشقر يعمل قيصريّة ، بدكاكين وربع فوق كل صف من الدكاكين ، وتكون قيصريّة مملوك حارة كاملة بيوتها ودكاكينها محفوظين وتختّم لأستاذي على فرمان سلطاني بعدم مرور المحتسب والوالي فيها لا نهار ولا ليل " (١٤-٥٠٦) .

في هذا الحلم يصيغ الحالم (عثمان بن الشعب) تصور العمارة القيصريّة المعزول عن عالم الناس بأسوارها وأبوابها وتتصل بعالم الناس عن طريق جسورها ، الأمانة تماماً كمدينه توماس مور حيث " يصل المدينة بالجانب الآخر للنهر جسراً أقيم من الأعمدة والأحجار ، وله أقواس ضخمة ويحيط بالمدينة سور عال عريض أقيمت عليه القلاع والأبراج " ؟ (٨-١١٤) .

والحي ملئ بالدكاكين والمحال أسباب رزق سكانه ، وأعلى منها محال السكن حتى يشعر الجميع بالأمن والأمان ، من جهة أخرى حي محمي من بطش والى أو جور محتسب . كما يمتد العمران خارج الحارة أو القيصريّة ليربطها بالمدينة الأم " فعندما وصل السلطان إلى شارع السيدة زينب رضى الله عنها ، فنظر الخليج ممدوداً على ظهره خشب يدوس عليه المارة من على الخليج ، فقال الملك الصالح " يا شاهين هنا يحتاج قنطره لأجل راحه الناس في العبور .. ثم التفت إلي ببيرس وقال له : ابني هنا قنطره ولكن تكون كاملة الأوصاف وكذلك كل محل يكون مثل هذا اجعل له قنطره بالبناء الحجري وعقد طيب بالمؤن الطيبة لأجل منع الضرر عن الناس (١٤-٥٠٧) وهكذا فحماية الناس من الضرر هي واحد أيضاً من شروط تلك المدينة ... الأمان .. الأمن .. العدل والكرامة .

وحتى يؤكد المبدع الشعبي على مدينته الفاضلة التي يحلم بها عقد مقارنه بينها وبين الواقع الذي يسعى لتغييره والمتمثل في حارة "أبيك" عدو بيبرس اللدود في السيرة وكان يمثل ، الشخصية المملوكية التي كانت تقف أمام الظاهر وتشكل الصورة السلبية للممالك من وجهه نظر الراوي الشعبي ، والذي يصور حارته كرمز للفساد الذي يحيط بها من كل جانب فالسعر غالى والغش في الميزان هما سمه التجارة فيها "خبيبه الله هو وحارته ، والله ما هذا إلا لحم نعجة عجوزه ، وهذا البامية شاخه ، وهذا السمن فانه مخلط ، وزيتهم نلقص ، وكذلك اللحم كله عظام " (١٤-٥١٠) ، وتمتد المقارنة إلى باقي الحارات ، وحارة بيبرس اللحم والتي تذكرها السيرة بأنها " أحسن الحارات التي في مصر ... ذلك أن الناس الذين فيها عددهم صغير وملابسهم نضاف وبيعهم بالجد والإنصاف كما امرنا سيدنا محمد سيد الأشراف " (١٤-٥١٠) هكذا تظهـر الصورة العمرانية للقيصرية .. المدينة الفاضلة .. حلم الشعب لكن هل جمال العمارة .. ونظافة المكان وحدهما هما منتهى الحلم بحياة أفضل .. ؟ في مثل كل اليوتوبيات أو المدن الفاضلة كانت هناك عناصر أساسيه تكمل هذه الصورة العمرانية وأهمها :

- ١- حاكم قوى قادر على حماية الناس والمدينة .
- ٢- شعب عامل منتج له دوره وحدوده .
- ٣- مجموعه من الضوابط التي تحكم العلاقة بين الحاكم والشعب ونجاح هذه العناصر هو نجاح للمدينة ويتحقق الحلم بها ، وبدون هذا النجاح يهدم الحلم وينكسر . فكيف جاءت العناصر ؟

الحاكم والمحكوم في القيصريـة

قال أبو جعفر المنصور "الذي على الرعية ، أن احفظ سبلهم ، فيتفرقون آمنين في سبلهم ، ولا يصدون عن حجهم وقضاء نسكهم وأن أضبط كفورهم وأحصنها من عدوهم ، وأن أختار قضائهم ، وأعزهم بالحق كيلا يصل ظلمهم

إلى بعضهم وأن أرفع فقهاءهم وعلماهم وأكف جهالهم عن حكمائهم"
(٣٣٥-١) .

قسمت اليوتوبيا جميعها المجتمع داخلها إلى طبقتين ، "طبقة الحكام ، وحاشيتهم وتابعيهم من جنود وحراس كما أسماهم أفلاطون ، وطبقة المحكومين أو الشعب ، حيث أن الأمر يتطلب بالضرورة "طبقة حاكمة أو فئة تمسك بزملم السلطة المتحركة في بقية الشعب" (٩-٢٤) ، لذلك وضع أصحاب هذه اليوتوبيا تصوراتهم حول طبيعة الحاكم وطبيعة المحكوم والنظام الذي يحدد العلاقة بينهما ، فنجد أفلاطون ينص على أنه لا يجوز اختيار الحكام أو الحراس في جمهوريته المثالية على أساس نسبهم أو ثرواتهم ولكن على أساس الخصال التي تؤهلهم للقيام بمهمتهم فلا بد أن ينحدروا من سلالة طيبة ، وأن يتمتعوا بصحة جيدة ، وأن يكون لهم عقل راجح ويتلقوا تربية حسنة " (٩-٣٣) ، وقد فسر أفلاطون مقولته بما عرفته ماريا لويزا "بالأكذوبة النبيلة" والتي تجعل الشعب يتقبل حكامه وحراسه وكأنهم قدر لا فرار منه ، فقد جاء على لسان سقراط في محاوراته حول الجمهورية المثالية : "أنتم جميعاً في هذا المجتمع اخوة ، ولكن عندما شكلكم الله ، أضاف عنصر الذهب في مركب هؤلاء الذين يملكون ما يؤهلهم للحكم ، وهذا سبب عظمة مكانتهم ، ثم مزج مركب من يعاونهم بالفضة ، ومزج مركب الفلاحين والعمال بالحديد والبرونز ... وهناك نبؤة تقول "إن الدولة ستقنى عندما يحكمها من هم ممزوجين بالفضة أو البرونز" (١٣-١٢٣) .

هذا يحدد أفلاطون عنصرين هامين تميز خصائص الحكام ، أولهما بيولوجي والثاني ديني مرتبط بنبؤة ما ، وإن كنت لا أجزم هنا أن الراوي الشعبي قد تأثر بأفلاطون عند صياغته للسيرة ، ولكن يبدو أن فلسفة الحكم المستبد الديكتاتوري هي فلسفة واحدة في كافة العصور ولا بد من "أكذوبة نبيلة" تبرر تسلطها وخضوع الشعوب لها ، تحت شعارات التميز العضوي من جبهة ، والتفويض الإلهي والشرعية من جهة أخرى . وهذا ما رصدته المبدع الشعبي

سواء بقصد أو بدون قصد في سيرته وحاول أن ينفي بعضه عن بيبرس الذي جاء به مغيراً لكل الحكام الذين عرفتهم مصر على مستوى الواقع منذ الفراعنة وحتى زمن تدوين السيرة على الأقل ، وهو عكس ما حاول عبد العزيز حموده تأكيده في مسرحيته حيث قدم لنا الظاهر بيبرس رمزا للحاكم المستبد الديكتاتور الساعي لشهوة السلطة ، حتى وإن حلم ذات يوم برخاء مصر وعظمتها ، فهو يعبر عن حلمه الشخصي ليكون حاكماً قوياً . فكيف جاء الحاكم في كل من المسرحية والسيرة .

الظاهر بيبرس ... بطلاً مسرحياً

قدمت لنا المسرحية الظاهر بيبرس كسلطان مملوكي ، يستغل الشعب الذي استمد منه القوة ليصل إلى السلطة وتدعيم وجوده على العرش بعد اغتياله لقطز ، ثم يتنكر له ويظهر وجهة الحقيقي عندما يطالبه عثمان بن الحلبي رمز الشعب بتحقيق المساواة .

عثمان: لابد أن يكف المماليك عن اعتبار أنفسهم طبقة متميزة عن أبناء البلد موش معقول مولاي يطالبني أساعده في ضرب الفساد الداخلي ، وفيه طبقة متميزة بتعيش في القلعة ، وتبص من فوق لأحياء القاهرة في تعالي واحتقار (٣٧-١٥) .

أيضا عندما يطلب عثمان من بيبرس السماح له بالزواج من جارية مملوكية.. بيبرس: عايز أقولك يا اسطي عثمان إنك عديت الخط .

عثمان في دهشة خط؟ بيبرس : أيوه يا أسطي عثمان .. الخط الفاصل بين سكان الحسينيه وساحة طولون وسكان القلعة .. فتحنا لك البوابة الكبيرة.. قعدناك بينا .. فنسيت أنت مين وابن مين .. وفهمت إنك تقدر تبقى واحد من المماليك ..تركب خيول وتتجوز من بناتنا .

عثمان :لكن دي جارية .

بببرس :من الممالك ..أوعى تنسى كده أبدا (١٥-٦٨).يكشف عبد العزيز حموده هنا جوهر العلاقة بين الحاكم والمحكوم في مصر المحروسة والتي يحددها إطاران واضحا ، إطار تحكمه العلاقة وقت الشدة ، حيث تلجأ السلطة إلى الشعب تطلب مساندته ، لتأمينها كسلطة مطلقة حتى تتجاوز الشدة ، وإطار تحكمه العلاقة وقت الرخاء ، وهو يعتمد على تلك " الأكذوبة النبيلة " وتبين المسرحية هذه العلاقة القائمة على هذه الأكذوبة ، التي تستبيح للحاكم أن يخدع الشعب ويستغله ، ويفقده القدرة على الوعي أو استبصار الحقيقة في أغلب الأحيان .

فبعد أن يعتلي بببرس العرش باغتياله قطز ،يحاول استمالة قوى الشعب متمثلة في بطلها عثمان بن الحلبي ، الذي يتحالف مع بببرس مصدقا وعوده وحلمه بمصر الجديدة.

عثمان : أنا أتعاهدت مع بببرس ..مع بطل المنصورة ..بببرس اللي كسر لويس والكونت دارتو ..بببرس اللي شال رأسه على كفه وحارب في عين جالوت وانتصر ..أنا ما تحالفتش معاه ،إلا لأنه بيحب مصر عايز يرجع للإسلام مجده ويبنى مصر ويظهرها (١٥-١٢)

إذا فالحلم المشترك هو الذي دفع بعثمان للتحالف مع بببرس ، مثله مثل كافة أبناء الشعب ،الذين يقفوا مع الحاكم أيا كان طالما الهدف هو صالح مصر .. عثمان: كلنا وقفنا معاه زي ما كنا حنقف ورا أي حاكم تاني لأن في لحظة الخطر لانبفكر في قطز ولا في بببرس ولا شجرة ..الدر بتفكر بس في مصر المحروسة " (١٥-٢٨)

لكن هل تكفي السلطان هذه القوى الشعبية لاستمرار حكمه في زمن كزمن الممالك .

بببرس: عثمان معايا.. ورجاله..وأولاد البلد كلهم واقفين معايا.

قطز: موش كفاية .. طول ما إنت واخذ كرسي السلطة بحد السيف يمكن النهار ده انت قادر .. لكن بكره تكبر وتشيوخ وتضعف الشرعية يا بيبرس .. الشرعية (١٥-٤١)

ويلجأ السلطان إلى المكيدة مره أخرى ليحصل على الشرعية السياسية متمثلة في استقدامه الإمام الظاهر أحد الخلفاء العباسيين .. حتى ولو كان طفلاً صغيراً ..

بيبرس : هو ده اللي ينفع .. عايز خليفة ما ينساش طول عمره إن أنا اللي حظيته على رأس الخلافة بعد ما راحت بغداد تحت سنابك التتار . عثمان : أمال يبقى إيه فايدته يا مولانا ؟

بيبرس : الشرعية .. الشرعية يا أسطى عثمان .. عايز يقعد على أيدي اليمين وانت على أيدي الشمال وساعتها .. أقدر أنام وأنا مطمئن لأن حكمي لمصر المحروسة حيبقى شرعي (١٥-٥٣ ، ٥٤).

لكن بعد أن تنتهي المحن هل يصلح هذا النموذج للحاكم لإقامة المدينة الفاضلة ؟ هذا ما تجيب عليه المسرحية ، فكيف جاء الحاكم في السيرة الشعبية .

الظاهر بيبرس بطلا شعبيا

جاءت سيرة الظاهر بيبرس الشعبية محاولة من المبدع الشعبي للتعبير عن حلم الشعب بحياة أفضل ، حتى ولو كانت في ظل حاكم أجنبي طالما يخشى الله ويملك الشرعية الدينية التي تخوله الحق في الحكم ، فمنذ أن حكم المسلمون مصر وشرعية الحكم هي سند الحكام للسيطرة على الشعب ، وأمل الشعب لتقبل الحاكم ، الذي لم ينظر إليه كحاكم أجنبي بل كحاكم مسلم قومي عربي يعمل على وحدة وحماية وقوة الأمة الإسلامية ، ويستند في حكمه على الشرعية الدينية ، وبها يجب طاعته ، وهذا ما حاولته السيرة مع بطلها الأمير بيبرس التي حاولت أن تقدمه كبطل شعبي أحبه المصريون في واحد من أشهر السير الشعبية والتي اشتهرت (سيرته) في مجالسهم ومسامراتهم دون سائر السلاطين

وجعلوا كافة شخصيات تلك الفترة التاريخية وما سبقها ، شخوصا ثانوية في خدمة البطل الظاهر بيبرس (٨-١٧٠).

لذلك جاء بيبرس في السيرة رمزا للحاكم الذي يتمناه الشعب .. جاء مسلما.. يملك من الأحلام القومية والوطنية شيء كثير.. ويسعى لتحقيقها مستعينا بالشعب الذي يقف بجانبه ، وبالشرعية الدينية التي يتوجها خشية الله في العباد . وحتى يحقق الراوي صاحب السيرة ذلك ، اضطر إلى الكثير من التحوير "في شخصية بيبرس في السيرة ، فانتحل له نسبا ملوكيا ، وجعل الإسلام دين آبائه وأجداده ، وجعل له اسماً عربياً محمود وجعله نتاج ثقافة عربية ، وتربية عربية إسلامية " (٧-١٢٦) ، فهو كما جاء في السيرة في شكل نبؤه : "محمود المكنى بيبرس وهو الذي تفتح على يديه بلاد الكفار .. وتكون مصر في حكمه في غاية الافتخار .. هذا الأمير بيبرس ويسمى الظاهر.. وسوف يكون ملكا وسليطان وتذل له رقاب الأنس والجان (١٤-٢٦٦) وبجانب النبؤه كواحد من تقنيات صياغة السيرة الشعبية ، والتي تمهد لأحداثها مصيراً أبطالها ، يأتي أيضاً المنسب الطيب ، فأبطال السير يجب أن يكونوا أحرارا من سلالة ملوك وأمراء ، لذلك جاءت السيرة بأصل لبيبرس متمشيا مع خصائص أبطال السير الشعبية بشكل عام فهو "محمود بيبرس العجمي الدمشقي ابن القان جمك ، من مواليد خوارزم العجم" (١٤-٢٧٧).

وتنتقل السيرة بأحداثها لتدعيم نسب وأصل ونشأه بيبرس مثل النشأة التي ساهم فيها الأفاضل كالسيدة فاطمة الأقباسية ، وأولياء الله الصالحون، كما جاءت به ملما بتعاليم الإسلام حافظا للقرآن ويجيد تلاوته بصوت رخيم "إن كان سماعه يحي السقيم"، كما وفرت له السيرة كل ما يلزم البطل من معدات حربية كاللد الدمشقي المرصود باسمه وكنوز أحمد بن السبكي ومنزله ، والأعوان كالوزير الأغا شاهين الأفرم ، وعثمان بن الحلبي والفداويه . كما جاءت به السيرة غيورا على الدين الإسلامي متمسكا بأحكامه يفرضها باللين أحيانا وبالقوة

إن اضطر، فالسلطان القوي هو حامي المدينة ، والدين والشرعية ، هما سبيله للتعامل بالعدل والحق مع أهلها كما قال على بن أبي طالب رضى الله عنه الملك والدين أخوان لا غنى بأحدهما عن الآخر، فالدين أس، والملك حارس ، فما لم يكن له أس فمهموم ، وما لم يكن به حارس فضائع(١-٣٣٢) .

كذلك اهتمت السيرة بالإعداد الحربي لبببرس والذي تم على يد الوزير الأغا شاهين والخضر عليه السلام "صاحب العز والإقبال الذي أمده الله بالعمر الطويل وجعله مساعدا على أهل ملة الملك الجليل ، صاحب الكرامات الظاهرات والإشارات الباهرات والجاه العظيم والمقام وهو المسمى بالخضر عليه الصلاة والسلام"(١٤-٣٥١) .

أما الشرعية التي أكمل بها راوي السيرة إعداد بببرس للولاية والسلطة فقد جاءت على مرحلتين ، الأولى تلك الشرعية التي استحقها في مرحلة الإعداد واستمدها من أولياء الله الصالحين الذين راعوه في طفولته والسيدة نفيسة والسيدة زينب رضى الله عنهما ، واللذان رعاياه في شبابه ، فالسيدة نفيسة رضى الله عنها هي التي أوصت إليه باستخدام عثمان والاستماع إليه "هذا تابعي وخديمي وأنا لم أفوته أبدا ، ولكن رضيت أن يكون خديمك على طول المدى ، ويكون لك سامعا مطيعا ، وكذلك أنت الآخر تطيع أمره ، فإنه صحيح النظر وأنا ناظره إليكما بالرعاية والعناية "(١٤-٣٢٣) .

وهذا اكتسب بببرس شرعيته قبل تولى الحكم ، تلك الشرعية والحماية الدينية من أولياء الله الصالحين الذين ساندوه وراعوه وأوصوا به الشعب متمثلا في عثمان بن الحلبى ، الذي كان له نعم العون وقدم له كما أوصت السيدة نفيسة نعم المشورة . هناك أيضا التفويض الإلهي الرسمي للشرعية التي منحتها السيرة لبببرس "فقد جعلت الحكام الشرعيين يوصون له بالملك واحد بعد واحد وهو ينتظر زمانه المرتقب لا يتقدم عليه ولا يتأخر"(٤-٢٦) .

أما بعد توليه الخلافة ، فقد اعتمد مصر مقرا للخلافة العباسية المنهارة سندا شرعيا لتوليه الحكم تحت مظلة هذه الخلافة وهكذا جاء الحاكم ، فكيف جاء المحكومون .

المحكومون... والمدينة الفاضلة!!

لو نظرنا إلى صورة المحكومين أو الشعب عند كل من أصحاب السيرة الشعبية والمسرحية ، سنجد أن بينهما اتفاق ، على أن الشعب كان يعيش وطنه دون تدخل منه في اختيار الحاكم ، وأنه يقف موقف المتفرج غالبا على ما يدور من حوله وكأن ما يحدث لا يعنيه ولا يؤثر فيه. أم رشيد: مصر المحروسة كانت متزوقة لاستقبال المظفر قاهر التتار والمغول ، السلطان قطز.. وفي الصالحية أُنقِل ودخل السلطان الجديد القاهرة .. وطلع القلعة، والزينات هي الزينات ، والتعاليق هي التعاليق .. ما حدث فتح بقه الناس وقفت في الشوارع مبهورة مذهولة موش هو دا قطز اللي منتظرينه..دا ببيرس شافوة بيجلس على تخت السلطنة بهدوء ..وبعدين ..وبعدين هلولوا " (١٥-٩٠) .

هذا جانب الاتفاق أما الاختلاف فسوف نتعرض له في السيرة أولا ثم المسرحية..

المحكومون في السيرة

صورت لنا السيرة الشعب المصري أو شعب مصر المحروسة في مرحلتين ، مرحلة ما قبل سلطة ببيرس ، حيث كان الشعب عبارة عن فئات من العياق وقطاع الطرق ،مجتمع يسوده الفساد الداخلي ينتشر فيه الشذوذ الجنسي والرشوة والغش في الميزان ،المقدم حارس الدرك ، رئيسا للمنصر ، والوالي مرتشي ، والمحتسب خرب الذمة ، أما الغالبية من المساكين فهم من أصحاب الصنائع والفلاحين المغلوبين على امرهم . هذه صورة الشعب الذي قال

عنهم بيبرس " أنهم على كل حال أهل خلاعة وفكه ولكاعه ويكثرثون من الكلام مع بعضهم " (١٤-٢٨٠) .

ذلك الشعب الذي قال عنه عثمان انهم لا يعرفون الوفاء متواكلون "أما تعلم هؤلاء أولاد مصر ما منهم إلا له صناعة يعمل فيها بقوته وقوت عياله ، فلما رؤوك تركوها وبصحبتك بدلوها وقد صار لهم أربعة أشهر بطالين .. لاهين .. لاهين ، فإن أنت أقيمت على هذا الحال آخذوك وأكلوا ما معك من المال وإذا فقدت ما عندك من المتاع تركوك وما منهم من يعرف لك ارتفاع " (١٤-٣٤٣) . مثل هذا الشعب بكل مفسده ، كان لابد من إصلاحه قبل ان يبدأ بيبرس في بناء القيصرية ، وتوليه السلطة لذلك عندما أراد أن يعمر القيصرية ، جاء بأناس يمكن الاعتماد عليهم لعمارتها وفيهم الخير لاستمرارها فأمر عثمان بأن يأتيه "بأناس يكونون من أرباب السبب والصنائع فقال عثمان سمعا وطاعة. ونفا عشرة أنفار منهم اثنان زياتين وأثنان خضارية يا بس وخضارية أخضر واثنان جزارين خشن وضان ورجل علاف ورجل مزين ورجل قهوجي ورجل فكهاني " (١٤-٥٠٨) .

وكانوا نواة للمجتمع الذي أراد بيبرس أن يقيمه وجميعهم من أصحاب السبب والصنائع ثم وضع لهم نظام يعمل على تدعيم واستمرار الحارة والمجتمع بالصورة التي يريدها ، ملاحظة أخيره على أهل هذه الحارة ، أنها جاءت خلو من أهل الفن ربما يؤكد ذلك ما أثير من أن بيبرس قاوم الفنانين خلسة رجال خيال الظل لما في أعمالهم (من وجهة نظره) من مجون وخلاعة لا تتفق مع أخلاقياته وخشيته الله ومحاولته الحفاظ على مجتمعه .

المحكمون في المسرحية

أما في المسرحية فقد أسند عبد العزيز حمودة للفنانين المخالين دوراً هاماً في كشف السلطان والأعيبة وجعلهم هم أصحاب البصيرة والوعي بما يدور حولهم ولولا مطارده رجال السلطان لهم لكان لهم دورا آخر..

شمس: وإلا انتم عايزين عساكر السلطان تجري ورانا في شوارع مصر (١٥-٩) أنهم أصحاب الوعي الغائب لدى أولاد البلد وعلى رأسهم عثمان "كلنا عارفين ببيرس ضحك عليه بكلمتين عن المصير المشترك والدور التاريخي اللي بيلعبه كل واحد منهم (١٥-١٥) وهم الواعون بالظلم وكبت الحريات أمر رشد: لكن يا أسطى عثمان.. ظلم السياسة والممالك منعونا من الكلام فيها.. يبقى فاضل إيه نتكلم فيه غير قلة الأدب.. أيوه.. ما فيش قدامنا غير الهلس والتهرج ما دام الجد ما بقاش من حقنا نتكلم فيه (١٥-١٧) وهذا كان مبررا للفساد فكبت الحريات هو المصدر لكل أوجه الفساد، وهناك في المقابل أولاد البلد كعثمان الذين انخدعوا بالسلطة ووعودها وعاشوا حلم المساواة، لكن لحظة الجد فقدوا كل شيء السلطة والناس وذواتهم.

أم رشيد: أنت يا أسطى عثمان ما مشتش معاهم للنهاية. علشان كده سابوك لوحك.. (١٥-١٠٠) فالشعب حتى وأن كان يقف موقف المتفرج فهو ليس متفرج سلبي فقط يريد من يقدره من يكون له قدوة. "إديهم انت فرصه.. أديهم واحد يؤمنوا بيه ببرائته وطهره وحتشوفهم يعملوا إيه أديهم القدو والراجل اللي يؤمن بهم (١٥-١٠٠) لذلك ولعدم وجود هذا الرجل لم ينجح ببيرس المسرحية في إقامته قيصريّة أو مدينة فاضلة، فالمدينة الفاضلة حتى تتحقق ويكون لها وجود يجب أن تتجاوز حدودها الحلم والنوايا الطيبة إلى واقع ونظام محدد للعلاقات المثلى أو الفاضلة بين الحاكم والمحكوم والتي بها تكون أو لا تكون أي مدينة فاضلة.

العلاقة بين الحاكم والمحكوم

أو عوامل البناء والهدم في المدينة الفاضلة

أيما كان التصور الفكري أو الفلسفي للمدينة الفاضلة، فهو يعتمد على نسق أو نظام للعلاقات القائمة بين الحاكم والمحكوم والتي من شأنها العمل على

استمرار المدينة الفاضلة ، وفي هذا المنحى كان هناك اتجاهان يحكمان هذه العلاقة في الفكر الليوتوبي عبر العصور "اتجاه يبحث عن سعادة الجنس البشري من خلال الرفاهية المادية وإذابة فردية الإنسان في المجتمع في مجد الدولة، واتجاه آخر يتطلب درجة معينة من المادية ، لكنه يعتقد إن السعادة هي نتيجة التعبير الحر عن شخصية الإنسان ، ويجب ألا يضحي بها لأجل قانون أخلاقي استبدادي أو لصالح الدولة ". (٨-١٩) هذا بالنسبة لليوتوبيات الغربية بداية من جمهورية أفلاطون التي قامت على السلطة الأخلاقية ، أو يوتوبيات القرن التاسع عشر التي قامت على ملكيه وسائل الإنتاج والتوزيع ، أما بالنسبة لليوتوبيات العربية المصرية التي حلم بها مبدع السيرة فإنه يمكن تحديد أهم ملامحها في:

- ١-وجود الحاكم العادل الذي يخشى الله ويرعى شريعته.
- ٢-مقاومة الفساد الداخلي الأخلاقي والإداري.
- ٣-المساواة في العمل للجميع وإعطاء الفرصة لكل فرد - حتى يثبت أحقيته حتى ولو كان مخطئ وتاب فلا يحرم من خير الوطن:
- ٤-العدل في المعاملة.
- ٥-الشعور بالأمان والأمن.
- ٦-عدم التفرد في اتخاذ القرار بل يجب أن يكون الأمر شورى بين الحاكم والمحكوم.

هذه أهم ملامح العلاقة بين الحاكم والمحكوم والتي حلم أصحاب السيرة بأن نسود مدنيتهم الفاضلة أو حكامهم "الغور" ، وهي تقريبا نفس الملامح التي يمس قرأتها من التبرجحية ، إن كان المراد هنا قد أكد على أهمية الفساد الداخلي والذي يجب كل شيء عداه من عوامل الهدم التي أدت إلى الفناء المادي للتيصرية بإحراقها.

فعندما سارع نيرس في تحقيق التيصرية بمساعدة عثمان بن الحلبلي ، والحلم هنا فردي من نيرس ، بعكس أسيرة التي نادى فيها عثمان بضرورة

بناء القيصريّة وكأنّها حلم للشعب كله الذي تبنى وجهة نظر عثمان بن الحلبى، نقول أن بيبرس في المسرحية الهاه الحفاظ على العرش والخوف من غدر الممالك عن الانتباه إلى الفساد الداخلي المتمثل في وجود الممالك وأصحاب المصالح وتميز عن الشعب ، والذين أشار إليهم عثمان في أكثر من موقع في المسرحية، لذلك كانت النتيجة المنطقية الفشل في تحقيق الحلم والذي تجسد في إحراق القيصريّة والذي كان بمثابة المنبه الذي أدرك به بيبرس أهمية مقاومة الفساد الداخلي.

بيبرس: النهار دة قدرتم تحطموا في لحظة واحدة اللي بنيتّه في سنين الحبي دة كان البداية وانتم عارفين كده كان الرمز للحلم اللي عشت طول عمري علشانّه النهار دة نجحتم في حرقة.

الوزير: اتهام خطير.

بيبرس: مصلحتكم واضحة يا وزيرى انتم مش عايزين الجسور تمتد بين السلطان وأولاد البلاد علشان تتفردوا انتم بكل شئ أنا ناورت علشان أؤمن نفسي واصبح قادر على مواجهتكم

الوزير: تصفية الممالك يا مولاي

بيبرس: كان لازم اعرف إن العدو الداخلي أضطر بكثير من العدو الخارجي وإن كل الانتصارات الخارجية مالهش قيمة طول ما إحنا عايشين في بيت من القش (٩٣:١٥-٩٥) ويكتشف بيبرس بعد إجهاض حلمه، انه قد غفل عن العدو الحقيقي ، وخسر في نفس الوقت الصديق الحقيقي له والشعب بعد إن عزل نفسه عنه واستفرد بالسلطة ، وترك أصحاب المصالح يتآمرون ويتسلطون فكانت نهاية حلمه بمدينة فاضلة.

ويرتبط هذا التفسير بالضرورة باللحظة التاريخية التي كتبت فيها المسرحية ، وبدوافع المؤلف من تحميل الرموز المختلفة بها المستوحاة من

السيرة بدلالات معاصرة ، وان جاء الفساد الداخلي في عمومة دلالة واضحة ، تتفق إلى حد كبير مع ما جاء في السيرة وان اختلف أصحاب السيرة عن المؤلف في انهم أولو الفساد الداخلي ومعالجته أولى اهتماماتهم وأولى المهام التي تولوها ، ببيرس حتى من قبل أن يحلم عثمان ببناء القيصرية ، ولم يترك أصحاب السيرة ببيرس يتولى هذا المهمة وحد ، بل أبدعوا له من خيالهم عثمان بن الحلبي الذي أرشده ودله أنقذه في كثير من المواقف حتى استطاعا إن يمهدا للحلم بالقيصرية وبنائها ثم حمايتها فيما بعد ، من مؤامرات المماليك متمثلة في "أبيك" والفرنجة متمثلين في جاسوسهم "جوان" ، وكان سلاحهما في ذلك مقاومة الفساد الداخلي أولا .

الفساد الداخلي في السيرة

بقراءة سيرة الظاهر ببيرس يتبين إن الفساد الداخلي في المجتمع يمكن تصنيفه إلى صنفين صنف أخلاقي وصنف إداري ، أما الصنف الأخلاقي فيتمثل في بعد الناس عن الدين وعدم خشية الله والإتيان بالمحرمات "كاللواط" والذي حاول ببيرس في أكثر من موقع مقاومته والفتك بمرتكبيه مهما كان قربهم للوالي أو السلطان ، أيضا كان هناك خراب الذمم الذي يسود التعامل بين التجار وأصحاب الصنائع والناس فبعد أن تولى ببيرس الحسبة "يأتي إليه مشايخ الخبز التابعة للحسبة وفي مقدمتهم شيخ الخبازين ويتبعه شيخ الزياتين مع شيخ الجزارين ... ولكل هؤلاء وسلموا على الأمير ببيرس وجلسوا بين يديه وأخرج كل واحد منهم صرة ، وقدمها إلى الأمير ببيرس وقالوا له بأن هذه عادة.. إذا تولى مثلك محتسب جديد.. فان له علينا أن نأتوه بالصره.. ونحن نورد العوائد لأمين الاحتساب لأجل إن كان سارح يشق البلد ومسك رغيف ورآه ناقص عن مائة درهم فلم يتكلم بل هو له الصرة تأتي إليه في كل شهر ثم التفت ببيرس إلى المشايخ الحاضرين وقال لهم يا مشايخ هل يجوز لكم أن تنقصوا الكيل والميزان

مع أن الله تعالى نهى عنه ... وانتم لأي شيء تنقصوا حق الناس وتعطوهم بأثمان زائدة (٦٢-٤).

ثم أمرهم ببيرس بان يلتزموا بالمواصفات والوزن والأسعار وإلا فالويل لكل مخالف ومن جهة أخرى "أما إذا كان واحد شيخ طائفة .. مد يده إلى واحد من طائفته واخذ درهم أو اقل أو أكثر على قبول المحتسب أو لنفسه فهذا له عندي مقام الحرامي ولا جزاء له إلا قطع يده (٦٢-١٤) وهكذا بدأ في مقاومة الفساد الداخلي الأخلاقي.

لذلك عندما انشأ القيصرية وقف أمام سكانها من البائعين وأصحاب الصنائع يحدد لهم شروط البيع "إن البيع لا يكون إلا بالجد والإنصاف ولا يكن فيه عذر على خلق الله .. أيضا بشرط آخر أن تكون العدد نضاف قوية وكذلك قربة الزيات نظيفة وكذلك الميزان وعدة القهوجي كمثمل الملبوس النظيف (٥٠٩-١٤).

وبهذا أعطى ببيرس نموذجا للمعاملة الطيبة التي تخضع لشريعة الله وتعمل على حماية الناس من جشع وفساد التجار .

هناك جانب آخر من الفساد وهو الفساد الإداري الذي اتصف به التابعين لرجال السلطة .. فلما تولى ببيرس ولاية مصر بعد مقتل الوالي الظالم الفاسد ، جاءه رجال الوالي السابق للعمل عنده ، فقال لهم " ببيرس انتم لكم جامكيه شهرية قالوا له ليس لنا على المخدم شيء وانما نحن علينا للمخدم كل ما يتكلف مطبخه من لحم وخضار وسمن وملح وفلفل فقال لهم ببيرس ومن أين يجيبوه قالوا له السراجين الذي يسرحون في كار السرقة والمناصر والبلطجية ولعابيين الكار ومثل ذلك فقال ببيرس يا جدعان هذا حرام يا هل ترى إذا كان يطلع لكم واحد منكم كل يوم خمسة دراهم فضة وعشر أرغفة ويفطر الصبح من سماطي .. الخ... قالوا إذا كان الأمر كذلك هذا احسن ما يكون لنا قال لهم على شرط إنكم تتوبوا من هذا الفعل وتستعملوا الصلاة والعبادة (٥٤٣-١٤).

لقد وضع الراوي السبيل القويم لصلاح الفساد وهو ضمان لقمة العيش والستر للرعية ، فان هذا مطلبهم ولن يفلح مجتمع به شخص محتاج ، فلا بد أن يضطرو لمساندة الفساد من اجل لقمة العيش ،لذلك عندما استقدم بيبرس سكان قيصريّة لم يتركهم لحالهم بل حاول أن يؤمن لهم الحد الأدنى من سبيل العيش الشريف ، ويعاونهم في بداية مشوارهم "انتم أول ناس تسكنوا في ملكي فكل واحد منكم يأخذ منى ثلاثمائة دينار ، مائه يشتري بها سبب ، ومائة تكون أرضية على الجابي الذي يأخذ الاستئجار والمحتاجين لربما يكون محتاجا يأخذ شيء لم يكن عنده دراهم فلا ترده أعطوه... وأما المائة الثالثة فتكون بيد الواحد منكم نقدية لأجل التوسع في الأخذ والعطاء(١٤-٥٠٩) وهكذا وضع بيبرس الأسس التي تحمي مجتمعه من انتشار الفساد الداخلي أخلاقيا بتأمين لقمة العيش ، ووضع ضوابط المعاملة بين الناس ورجال السلطة ، وإداريا بنهى رجال السلطة عن استغلال الناس لصالحهم أو لصالح رئيسهم ، وحتى تسود المحبة بين الجميع كان هناك التزاما للجميع باحترام القوانين والشرعية ، وخشية الله ، كل هذا يؤدي بالضرورة إلى الإحساس بالأمان داخل المجتمع .

الشعور بالأمن والأمان

إن مجتمعا لا يشعر الإنسان داخله بالأمان ، سيكون دوما مجتمع طرد لأبنائه ، لذلك حرص بيبرس في مجتمعه ، أن يشعر الجميع بالأمان ، وذلك بإرساء القواعد الأخلاقية للعمل التي تكسب الجميع الشعور بالأمان ، وب حمايتهم من تعسف السلطة الذي يحقق لهم كل الامان ، " ثم أني أعلمكم أن لا يدخل حارتي محتسب بالنهار ولا بالليل لأجل أن تكونوا آمنين في الليل والنهار من الطارق بشرط عدم الغش في الأوزان وعدم الزيادة في الأثمان"(١٤-٥٠٩) .

فلا تكفي فرمانات والقوانين للشعور بالأمان بل يجب أن يكون هناك التزاما أيضا بهذه القوانين وبالتالي سيؤدي هذا الالتزام إلى عدم التعرض للمساءلة . هناك أيضا الأمن الذي يجب أن يستشعره سكان الحارة تجاه ذويهم وأهلهم " لكل

من سكن في دكان يحط أولاده وحريمه في البيت الذي فوقه وأجرة الدكان والبيت سبعة سنوات من غير أجره ومده السبعة سنوات مؤمنه بيته من القمح والسمن وكل ما كان يلزم بشرط أنكم تكونون على ملازمة صلاة الوقت ولا أحد يتأخر عن صلاته أبداً" (١٤-٥٠٩) إذا فالحاكم يوفر المسكن بجانب مكان العمل حتى يأمن العامل على أهله وذويه ، وأيضاً يكفل له سبل العيش إلى أن يستطيع أن يسير حاله من خلال العمل ، وهذا نوع من العدل الذي تمناه الراوي الشعبي لحارته أو بلده . والتي كان يسودها الاستغلال وينعدم فيها العدل . هناك أيضاً مسؤولية أهل الحارة تجاهها فهم ليسوا تنابلة وليست الحارة هبة بلا مقابل ، والمقابل الحفاظ على المظهر العام ، والأخلاق ، وخشية الله ، أما الحفاظ على مظهر الحارة وسمعتها فيأتي من "أن تكون العدد نضاف والحارة نظيفة وأيضاً السقا والزبال على طرفنا بشرط النظافة من جهة الرش والكنس وكل واحد يعلق قنديل على باب بيته وقنديل في الدكان من المغربية إلى الصباح (١٤-٥٠٩) وهكذا "صارت حارة بيبرس هي احسن الحارات ذلك أن الناس فيها عددهم نظاف وملابسهم نظاف وبيعهم بالجد والإنصاف كما امرنا سيدنا محمد جد الإشراف (١٤-٥١٠) .

المساواة والعدل

أيضاً لم تترك السيرة قضية التمايز الطبقي بين الممالك وأعوانهم والناس دون أن تتعرض لها ، فقد أمتاز بيبرس كما رسمه أصحاب السيرة بالعدل والمساواة بين الجميع ... فمن أخطأ يجب أن يتلقى عقابه وإن تاب ، فالعدل يقتضي منحه فرصة لإثبات صدق توبته ، فعندما أخطأ الوالي المملوكي والمحتسب قبل حارته أعطى كل منهما الفرصة للعدول عن ظلمه لأهل الحارة ، ولما استمرا لم يتورع عن معاقبتهما ، من جهة أخرى كان بيبرس كلما تولى أمر من الأمور يعمل بنصيحة السلطان الصالح نجم الدين أيوب "عليك بالعدل والإنصاف كما أمر النبي جد الأشراف صلى الله عليه وسلم

أنهى عن الظلم وقال الظلم ظلمات وإن دام دمر العدل ولا يدوم (١٤-٥٤) . وقد أكد الراوي على هذا المعنى في أكثر من موقف وواقعة في السيرة ، وكأنه يعيد حلمه بالعدل لعل وعسى ، وتمسكا بالعدل كان بيبرس يعامل المخطئين المتمردين باعتبارهم نتاج ظروف سيئه ، ولو تحسنت ظروفهم ، قد يكون في ذلك منفعة لهم وللمجتمع فعندما عرض المقدم على بيبرس كل طوائف اللصوص والنور " قال بيبرس إلي عثمان تعالى له اعرض على الجميع التوبة فالذي يتوب لا بأس والذي لم يتوب ضع في رجله قيد وحط في رقبته الحديد .. فنزل عثمان وقال يا جماعة ما قولكم في التوبة ترضوا بالتوبة فأمر الأمير بيبرس أن كل حرمه تختار لها زوجا من الحاضرين أعطى لكل رجل وامرأة مائه محبوب وقال لهم اتركوا الفساد وعليكم بتقوى الله الكريم .. وأما الأولاد الصغار كساهم أدخلهم الكتاب والله تعالى فتح عليهم ببركة القرآن والسيدة زينب (١٤-٥٤٩) .

استمر بيبرس وتكرر ما فعله مع كل طائفة سبق لها أن انحرفت وأخطأت حتى جمع حوله التائبين وكاد مجتمعه أن يخلوا من الفساد ، ويستكمل أصحاب السيرة صورة حلمهم بالمدينة الفاضلة والتي توجوها بالعلاقة بين الحاكم والمحكوم والتي لا بد أن يسودها شكل من أشكال الشورى والمشاركة في اتخاذ القرار .

الشورى بين الحاكم والمحكوم

اختار أصحاب السيرة الشعبية شخصية خيالية رمزا للشعب من وجهة نظرهم (وهو عثمان بين الحلبي) والذي يحب البلد ولا يقل إن لم يكن يزيد في حبها عن بيبرس ، لذلك وفر له المبدع الشعبي كل أسباب التأيد سواء من القوة الغيبية الدينية متمثلة في السيدة نفيسة رضى الله عنها ، أو الشخصية في ذكائه ومهاراته وبصيرته ، وأيضا قوته التي جعلت الجميع يرهبونه . ويأتي عثمان كنموذج محبوب لدى القاص الشعبي بشكل عام ، وهو نموذج الخارج على

القانون " والقانون هنا بالطبع هو قانون السلطة الحاكمة والذي يباين إلى حد كبير تصور العرف التقليدي للحقوق والواجبات ،وما يرتبط بها من قيم ومثل ...لذلك فإن القصص الشعبي يحول مواجعتهم للسلطة ومقاومتهم لها من قضية خاصة إلى قضية عامة "(٣-١٦٤)

وهكذا جاء عثمان قبل أن يلتقي ببيرس مطاردا من السلطة ومن الوزير شاهين الذي يحذر ببيرس من عثمان ومن التعامل معه ، لكن عثمان بعدما يلتقي ببيرس ويضع الله محبته في قلبه ويتعهدا أمام ضريح السيدة نفيسة ، يقفا معا في مواجهة القانون القائم في مصر وعناصر فساد ، لمقاومتها وإصلاحها ،حتى تتحول كل الأمور لصالحهما ولصالح ما يؤمنان به ، وبعد أن تستتب الأمور لبيرس ولمصر داخليا ، ينتهي تقريبا دور عثمان ويكاد يختفي من باقي السيرة. لذلك كان لابد وان يكونا ببيرس وعثمان وجهاً لعملة واحدة أمام السلطة حتى يمكن التصدي لها ، حيث أن منطق السرد الشعبي يفترض انه "لا حل مع الفساد الساري في المجتمع وسيادة مبدأ الاستغلال المرتكز على القوة إلا بانتزاع الحق بالقوة طالما أن القانون هو قانون المستغلين والنظام نظامهم (٣-١٦٥). وهكذا يتفق عثمان وببيرس ويتعهدا ،لكن هل هو اتفاق الأقوى بالأضعف ، اتفاق السيد بالفرفور أم هو اتفاق الند بالند ، فببيرس وعثمان وجهين لـذات العملة وهدفهما واحد لذلك كان لابد من تكافؤهما في السيرة ، فان كان ببيرس يملك الملك والسلطة ، فان عثمان يملك حب الشعب والبصيرة التي يفقدهما ببيرس ، لذلك كان لابد أن يكون الأمر شوري بينهما وان يشتركا دوما في اتخاذ القرار ، لذلك نجد أنه وفي أكثر من موقع وموقف في السيرة ، نجد الراوي وهو يؤكد على ضرورة طاعة ببيرس لعثمان والتي نصحه بها الملك الصالح أكثر من مره "كم من مره وهو يقول له طاوع عثمان" (١٤-٥٧٠).

وكذلك السيدة نفيسة التي جاءت في رؤى متعددة وتخبره "بان عثمان مكاشف لا يخلو من الكرامات فقال ببيرس يا عثمان قال عثمان نعم قال له أنى

أنهى عن الظلم وقال الظلم ظلمات وان دام دمر العدل ولا يدوم (١٤-٥٤) . وقد أكد الراوي على هذا المعنى في أكثر من موقف وواقعة في السيرة ، وكأنه يعيد حلمه بالعدل لعل وعسى ، وتمسكا بالعدل كان ببيرس يعامل المخطئين المتمردين باعتبارهم نتاج ظروف سيئه ، ولو تحسنت ظروفهم ، قد يكون في ذلك منفعة لهم وللمجتمع فعندما عرض المقدم على ببيرس كل طوائف اللصوص والنور " قال ببيرس إلي عثمان تعالى له اعرض على الجميع التوبة فالذي يتوب لا بأس والذي لم يتوب ضع في رجله قيد وحط في رقبته الحديد .. فنزل عثمان وقال يا جماعة ما قولكم في التوبة ترضوا بالتوبة فأمر الأمير ببيرس أن كل حرمه تختار لها زوجا من الحاضرين أعطى لكل رجل وامرأة مائه محبوب وقال لهم اتركوا الفساد وعليكم بتقوى الله الكريم.. وأما الأولاد الصغار كساهم أدخلهم الكتاب والله تعالى فتح عليهم ببركة القرآن والسيدة زينب (١٤-٥٤٩) .

استمر ببيرس وتكرر ما فعله مع كل طائفة سبق لها أن انجرفت وأخطأت حتى جمع حوله التائبين وكاد مجتمعه أن يخلوا من الفساد ، ويستكمل أصحاب السيرة صورة حلمهم بالمدينة الفاضلة والتي توجهها بالعلاقة بين الحاكم والمحكوم والتي لا بد أن يسودها شكل من أشكال الشورى والمشاركة في اتخاذ القرار .

الشورى بين الحاكم والمحكوم

اختار أصحاب السيرة الشعبية شخصية خيالية رمزا للشعب من وجهة نظرهم (وهو عثمان بين الحلبي) والذي يحب البلد ولا يقل إن لم يكن يزيد في حبها عن ببيرس ، لذلك وفر له المبدع الشعبي كل أسباب التأييد سواء من القوة الغيبية الدينية متمثلة في السيدة نفيسة رضى الله عنها ، أو الشخصية في ذكائه ومهاراته وبصيرته ، وأيضا قوته التي جعلت الجميع يرهبونه. ويأتي عثمان كنموذج محبوب لدى القاص الشعبي بشكل عام ، وهو نموذج الخارج على

القانون " والقانون هنا بالطبع هو قانون السلطة الحاكمة والذي يبين إلى حد كبير تصور العرف التقليدي للحقوق والواجبات ،وما يرتبط بها من قيم ومثل ..لذلك فإن القصص الشعبي يحول مواجهتهم للسلطة ومقاومتهم لها من قضية خاصة إلى قضية عامة "(٣-١٦٤)

وهكذا جاء عثمان قبل أن يلتقي ببيرس مطاردا من السلطة ومن الوزير شاهين الذي يحذر ببيرس من عثمان ومن التعامل معه ، لكن عثمان بعدما يلتقي ببيرس ويضع الله محبته في قلبه ويتعهدوا أمام ضريح السيدة نفيسة ، يقفا معا في مواجهة القانون القائم في مصر وعناصر فساد ، لمقاومتها وإصلاحها ،حتى تتحول كل الأمور لصالحهما ولصالح ما يؤمنان به ، وبعد أن تستتب الأمور لببيرس ولمصر داخليا ، ينتهي تقريبا دور عثمان ويكاد يختفي من باقي السيرة. لذلك كان لابد وان يكونا ببيرس وعثمان وجهاً لعملة واحدة أمام السلطة حتى يمكن التصدي لها ، حيث أن منطق السرد الشعبي يفترض انه "لا حل مع الفساد الساري في المجتمع وسيادة مبدأ الاستغلال المرتكز على القوة إلا بانتزاع الحق بالقوة طالما أن القانون هو قانون المستغلين والنظام نظامهم (٣-١٦٥). وهكذا يتفق عثمان وببيرس ويتعهدا ،لكن هل هو اتفاق الأقوى بالأضعف ، اتفاق السيد بالفرفور أم هو اتفاق الند بالند ، فببيرس وعثمان وجهين لـذات العملة وهدفهما واحد لذلك كان لابد من تكافؤهما في السيرة ، فان كان ببيرس يملك الملك والسلطة ، فان عثمان يملك حب الشعب والبصيرة التي يفقدهما ببيرس ، لذلك كان لابد أن يكون الأمر شوري بينهما وان يشتركا دوما في اتخاذ القرار ، لذلك نجد أنه وفي أكثر من موقع وموقف في السيرة ، نجد الراوي وهو يؤكد على ضرورة طاعة ببيرس لعثمان والتي نصحه بها الملك الصالح أكثر من مره "كم من مره وهو يقول له طاول عثمان" (١٤-٥٧٠).

وكذلك السيدة نفيسة التي جاءت في رؤى متعددة وتخبره "بان عثمان مكاشف لا يخلو من الكرامات فقال ببيرس يا عثمان قال عثمان نعم قال له أنى

مأمور أن أطاوعك في جميع ما تقوله لي وها أنا طائع على هذا الشرط (١٤-٥١٧) ، وحتى تزيل السيدة نفيسة رضى الله عنها كل ما قد يكون عالقاً بنفس بيبرس من شكوك أو عدم رضى عن هذا الأمر، تزوره في حلم له "يا بيبرس لا تخاف ولا تحزن أنت الظافر ولكن طاوع عثمان ،فيما يأمر بك به تظفر بعدوك وأما إن خالفته تحصل على شقه فأنتق الله وطاوعه فإن الله له في خلقه سرا خفيا لا يعلمه إلا هو " (١٤-٥٧٣) نرى كم من حاكم في حاجة لمثل هذه الرؤيا وذلك الحلم ، لكن يبدو أن زمان الرؤى قد ولى ... كما ولى حلم أصحاب السيرة وراويها ومبديها ، الذين حلموا ذات يوم بمدينة فاضلة صاغوها سيرة من أهم السير الشعبية ، واعتمدوا لها بطلا من أهم حكام المماليك الذين عرفتهم مصر، وما بين الحلم بالمدينة الفاضلة والتاريخ الذي وهب مصر بيبرس وصلاح الدين وأمثالهم ألا يحق لنا أن نحلم بالمدينة الفاضلة وان نصيغه سيرا وقصصا ، فمن يعلم ، قد تتحقق الأحلام ذات يوم ... المهم ألا نفقد الأمل قط في أن نحلم . وهكذا نخلص مما سبق إلى أن الحلم بالمدينة الفاضلة .. وهو حلم داعب وما يزال يداعب الشعوب في غفوتها وفي صحوها .. خاصة تلك الشعوب المغلوبة على أمرها .. المسلوبة إرادتها .. والتي لا تملك إلا الحلم ، وتحلم أيضاً بمن له القدرة على تحقيقه .. هكذا صورت السيرة الشعبية حلم الشعب بمدينة فاضلة ، ومجتمع فاضل ، ودولة عربية منتصرة على الدوام ، بفضل البطل الهمام الذي اختارته السيرة من أصحاب الصيت والأفعال العظام من التاريخ ، وهو الظاهر بيبرس الحاكم المملوكي ، أسندت إليه مهمة تحقيق الحلم بالمدينة الفاضلة ، التي ولا بد أن يتحقق فيها ، العدل والمساواة ، والحرية ، وللشعب دور في بنائها وإدارتها ، فالأمر فيها شورى بين الحاكم وأبناء البلدة ، وتدعمها شرعية دينية وشعبية ، وقوانين وأعراف تسود الجميع دون تحيز أو استثناء والجميع يسعون للخير ويخشون الله.

تلك عوامل البناء التي يمكن أن تحقق الحلم بالمدينة الفاضلة ، والتي يمكن إجمالها في :

- ١-وجود الحاكم العادل الذي يخشى الله، ويرعى شريعته.
 - ٢-مقاومة الفساد الداخلي الأخلاقي والإداري .
 - ٣-المساواة في العمل وإعطاء الفرصة للجميع لخدمة الوطن .
 - ٤-العدل في المعاملة.
 - ٥-توفير الشعور بالأمن والأمان .
 - ٦-الشورى في الحكم بين الحاكم والمحكوم.
- وهي نفس العوامل التي أكدت عليها المسرحية بغيابها الذي أدى إلى هدم الحلم .
- ففي غياب :

- ١-خشية الله وظلم الحاكم لمحكومية.
 - ٢- العدل وانتشار الفساد الداخلي بين الحكام .
 - ٣- الديمقراطية وتفرد الحاكم بالسلطة والحكم .
 - ٤-المساواة ، واستقطاب أفراد وتميزهم عن غيرهم وتميز طبقة على طبقة .
 - ٥-الحرية ، والافتقار إلى الشعور بالأمن والأمان.
- عندها لن يتحقق الحلم. ولن توجد تلك المدينة الفاضلة..وتصبح هي الحلم المستحيل؟

هوامش

١-المدينة الفاضلة:

تعني المدينة الفاضلة أو اليوتوبيا نموذجاً لمجتمع مثالي يتحقق فيه الكمال أو يقترب منه أو يتحرر من الشرور التي تعاني منها البشرية ، ولا يوجد

مجتمع كهذا في بقعة محدده من بقاع العالم بل في أماكن وجزر متخيلة ، وفى ذهن الكاتب نفسه ، وخياله قبل كل شيء (٩-٩)

٢- القيصرية:

أ- وحدة معمارية تنسب إلى مالكةا وهى عبارة عن حي مستقل محاط بأسوار، له عدد من الأبواب ، بداخله مجموعة من الدكاكين والربوع "مكان السكن" وقد ذكر المقرئى عددا منها أورده علي مبارك فى خطته منها ، قيسارية الفاضل ، وقيسارية سنقر الاشقر وقيسارية الشرب وقيسارية جهار كس ، الخ.. وهى جميعاً تنسب إلى أمراء من عصر المماليك . (٨-الفهرس)

ب- القيصرية أو القيسارية: من العمائر التجارية وكانت تتكون عادة من مجموعة من المباني العامة بها حوانيت ومصانع ومخازن وأحياناً مساكن وبها كذلك أروقة . والكلمة مشتقة من لفظ يوناني معناها السوق الإمبراطورية مما يدل بوضوح أنها كانت من إنشاء الدولة. أما فى مصر الإسلامية فيبدو أنها كانت من إنشاء التجار وكبار رجال الدولة (هويدا رمضان : المجتمع فى مصر الإسلامية "رسالة ماجستير ، آداب عين شمس ١٩٩٣").

٣- السيدة نفيسة :

قال المقرئى : نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبى طالب .. وكانت من الصلاح الزهد الذى لا مثيل له ، فيقال أنها حجت ثلاثين حجة وكانت كثيرة البكاء تديم قيام الليل وصيام النهار وكان للمصريين فيها اعتقاد عظيم وهو إلى الآن باقى كما كان ، وفى رحلة النابلسي أن السيدة نفيسة رضى الله عنها معروفه بإجابة الدعاء (٨-٣٠٧، ٣٠٨)

المراجع

- ١- أبى عمر يوسف بن عبد الله القرطبي: بهجة المجالس وأنس المجالس :القسم الأول (دار الكتاب العربي -القاهرة بدون) .
- ٢- سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيين والمماليك في مصر والشام (دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٧٦) .
- عبد الحميد حواس: الحكومة في الثقافة الشعبية (مقال : قضايا فكرية ، الكتاب الأول - دار الثقافة الجديدة القاهرة ١٩٨٥) .
- ٤- عبد الحميد يونس :الظاهر بيبرس (مكتبة الدراسات الشعبية ، الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة ١٩٩٧) .
- ٥- علي مبارك: الخطط التوفيقية ج١ (الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٠) .
- ٦- قاسم عبده قاسم: بين الأدب والتاريخ (كتاب الفكر -القاهرة ١٩٨٦)
- ٧- ---:بين التاريخ والفلكلور (عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ١٩٩٣) .
- ٨- ----: الأيوبيون والمماليك في التاريخ السياسي والعسكري (عين للدراسات- القاهرة ١٩٩٥) .
- ٩- ماريا لويزا نيري : المدينة الفاضلة عبر التاريخ ، ترجمة عطيات أبو السعود (عالم المعرفة - الكويت ١٩٧٧) .
- ١٠- محمد حافظ دياب : السيرة الشعبية إبداعية الأداء ط١ (دار آريا للطباعة والنشر ، طرابلس ، وليبيا ١٩٩٥) .
- ١١- ناصر الأنصاري : موسوعة حكماء مصر ط٣ (دار الشروق ، القاهرة ١٩٨٩)
12- thomas more ; the utopia , t . paul turner , (penguin books, london, 1965)
- 13- plato : the republie, t., desmond lec (penguin books, london .(1987)
- ١٤- سيرة الظاهر بيبرس ج١: (الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ، ١٩٩٦) .
- ١٥- الظاهر بيبرس : مسرحية تأليف عبد العزيز حموده - دار الوفاء للنشر- القاهرة ، ١٩٨٦) .